

تفسير ابن كثير

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم } وقال تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها } الآية وقال في هذا الآية الكريمة { وجعل منها زوجها ليسكن إليها } أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى : { ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة } فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه { فلما تغشاها } أي وطئها { حملت حملا خفيفا } وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة .

وقوله { فمرت به } قال مجاهد : استمرت بحمله وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه وقال ميمون بن مهران عن أبيه : استخفته وقال أيوب : سألت الحسن عن قوله { فمرت به } قال : لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به وقال قتادة { فمرت به } استبان حملها وقال ابن جرير : معناه استمرت بالماء قامت به وقعت وقال العوفي عن ابن عباس : استمرت به فشكت أحملت أم لا ؟ { فلما أثقلت } أي صارت ذات ثقل بحملها وقال السدي : كبر الولد في بطنها { دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا } أي بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس : أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك : أشفقا أن لا يكون إنسانا .

وقال الحسن البصري : لئن آتيتنا غلاما { لنكونن من الشاكرين * فلما آتاها صالحا جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون } يذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا عبد الصمد : حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال [لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره] وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بNDAR عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعا .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعا قلت : وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازي : لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فـ [] أعلم (الثاني) أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبد [] بن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال : سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن { جعلنا له شركاء فيما آتاها } قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم .

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني { جعلنا له شركاء فيما آتاها } وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم [] أولادا فهودوا ونصروا وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن B أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول [] صلى [] عليه وسلّم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه [] وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء [] إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع و [] أعلم .

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لادم عليه السلام أولادا فيعبدهم [] ويسميهم عبد [] وعبيد [] ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاها إبليس فقال : إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميان به لعاش قال : فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل [] يقول { هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا [] ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاها صالحا جعلنا له شركاء فيما آتاها } إلى آخر الآية وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم { هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به { شكت أحملت أم لا ؟ } فلما أثقلت دعوا [] ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين } فأتاها الشيطان فقال : هل تدريان ما يولد لكم ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوي

مبين وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان : إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول اﷻ تعالى : { فلما آتاها صالحا جعلاه شركاء فيما آتاها } الآية .

وقال عبد اﷻ بن المبارك عن شريك عن خفيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله { فلما آتاها صالحا جعلاه شركاء فيما آتاها } قال : قال اﷻ تعالى : { هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها } آدم { حملت } فأتاها إبليس لعنه اﷻ فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني إبل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثانية فأتاها أيضا فقال : أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثالثة فأتاها أيضا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى : { جعلاه شركاء فيما آتاها } رواه ابن أبي حاتم .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه - واﷻ أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : لما حملت حواء آتاها الشيطان فقال لها : أتطيعيني ويسلم لك ولدك سميته عبد الحارث فلم تفعل فولد فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال : إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهبهما فأطاعا .

وهذه الآثار يظهر عليها - واﷻ أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال [إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم] ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب اﷻ أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضا ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام [حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج] وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله [فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم] وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري C في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله { ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح } الآية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زين بها

السماء ليست هي التي يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصاييح إلى جنسها ولهذا
نظائر في القرآن والله أعلم